بَوح لجامعي مستجد

١٤٣٦/١١/١٩هـ

أحسب أن المرحلة الجامعية من أهم وأكثر المراحل التعليمية التي يشعر فيها الطالب بالاعتماد على نفسه بعد الله تعالى؛ لذا كانت هذه الأسطر التي ذكرتُ فيها شيئًا من تجربةٍ مضى عليها أكثر من عشرين عامًا، لا أزعم أن فيها جديدًا؛ لكن ربما كانت التجارب من أصدق ما يُنقل، فلأجيالنا الحاضرة حقٌّ علينا في نقل ما استفدناه، والتحذير مما جرّبناه، ولم نستفد منه، ولعل في نقل التجربة القريبة ما يعين على تحقيق أكبر المكاسب من هذه المرحلة (الذهبية) من عمر الشاب والفتاة.

مجموعُ الساعات التي يقضيها الطالب في هذه المرحلة أكثر من (ألفي ساعة) في المتوسط الدراسي وهو أربع سنوات، يتلقى فيها أنواعًا شتى من المعارف، ويلتقي أساتذةً تختلفُ مشاربهُم وطرقُهم في التعليم والتعامل، فماذا يعني هذا؟

الفَطنُ من الطلاب من صحّح نيّته في دراسته مهما كان تخصُّصه، ويتأكد هذا في طلاب العلم الشرعي، حتى لا تمضي عليهم ساعاتُ العمر دون قصدٍ حسنٍ، يضاعفُ الثوابَ، ويباركُ العملَ.

ومن علامة التوفيق للطالب أنك تراه متحليًا بزينة الأدب والخُلُقِ الحسن، عازمًا على الاستفادة من كل أستاذ في فنّه، مُعرِضًا عن أولئك الذين ينظرون للمدرسين بمناظير ضيقة لا تتجاوز المظهر! ويرى أن من نعمة الله تعالى عليه أن سخّر له بعضَ المتخصصين في فنونهم، ليفيد منهم فيما يُحسِنون، وألا يصدّه عن ذلك وجودُ ضعفٍ في بعض الأساتذة؛ لأنه يثقُ أنه ما من أستاذ يقف أمامه في الجامعة إلا وسيجد عنده ما يفيد، وإن قلّ.

وإذا غلب على ظنك -أيها الطالب اللبيب- أن هذا الأستاذ ليس بقوي في مادته؛ فاستفد من ذلك في حياتك العلمية بتقوية عِلْمِكَ؛ حتى لا تقف موقفه في مستقبل أيامك أمام طلابك، أو أمام المختصين في المجال الذي ستختاره بعد التخرج.

والأستاذُ -مهما بلغ من العلم في تخصصه- قد تفوته أشياء، فليس من المناسب إظهارُ الاستدراك بثوب التعالم، أو الاطلاع، ونحو ذلك من الصور التي تُخفي تحتها ألوانًا من الكبر والتيه العلمي -عياذًا بالله-!

ولا أنسى أحدَ الزملاء الذي كان يأسرني بأدبه وحسن خُلقه، إذا أراد الإفادة أو الاستدراك على أستاذنا؛ فهو يطرح السؤال بأدب جمّ يكسب به قلبَ أستاذِه، ويعطي به درسًا لزملائه في كيفية التنبيه والإفادة دون جرحٍ للمشاعر، أو استعلاء بالمعلومات، فإن الكبرَ والاستعلاءَ أحدُ الحُجب الكثيفة التي تُعمي عن رؤية الحق، وإصابة المراد، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[الأعراف:١٤٦]، قال ابن عيينة وغيره من السلف: أنزع عنهم فهم القرآن[1].

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٤٤٣).

وفي قصة موســى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ ألوانٌ من أدب الطالب مع شيخه، وإن كان الطالب أفضل من حيث الجملة -فكيف إذا لم يكن الأمر كذلك- حريٌّ بالموفّق مراجعتها والاستفادة منها.

ومِنْ أكثر ما استفدته في تلك المرحلة: صحبةُ الطلابِ الجادينَ الذين يُشــعرونني دومًا بأنني مهما بذلتُ من الجهد والقراءة والاطلاع ومعرفة جديد الكتب؛ فلا أزال مقصّرًا! فكنت أستقلّ كلَّ ما أفعل، مع نيةٍ شرودٍ بقصد المنافســة -عفــا الله عنا جميعًا- فاحذر من صحبة الكســالى، فإن صحبتهم جرَبٌ مُعْدٍ، وداءٌ مُرْدٍ، وخسارة محقَّقة.

ومن أعظم ما استفدته من تلك الصحبة: الحرصُ الشديد على الوقت، واغتنامُ الأوقات الضائعة بين المحاضرات، وحين انتظار وصول الأستاذ لقاعة الــدرس! فمِن طلاب الجامعــة من أنهى قراءة تفســير ابن كثير (الأصل) في هذه الأوقات الضائعة، ومنهم من قسّم السنوات الجامعية ليحفظ فيها أصولَ العلم، فللقرآن سنة، وبعضهم جعلها سنتين، وباقي السنوات لحفظ أهم المتون الشرعية، فحفظ مختصرَ الصحيحين، وكتابَ التوحيد، و(نخبةَ الفكر)، و(الواســطية)، و(الورقــات)، وغيرها من المتون التي انتفع بها في حياته العلمية بعد ذلك.

ومن الطلاب من جعل معه في سيارته -التي يتردد فيها مع زملائه- كتبًا يقرؤها بدلًا من تقطيع الوقت كلّه في الأحاديث التي يمكن الاكتفاء ببعضها، وتأجيل أكثرها.

وأحاذرك من بعض ما يفعله بعضُهم من القراءة في أثناء شرح الأستاذ بحجة اســتغلال الوقت! مهما كان مستوى المدرس علميًّا في نظرك، فهو

كـــما لا يليق أدبًا ولا ذوقًـــا؛ ففيه من مداخل الشـــيطان والرياء ما يحبط العمل، ويمحق بركتـــه! وأيّ معنى لطلب العلم بلا إخلاص أو مجاهدة للقلب عليه؟ إنه كمَن يحشو جرابه ترابًا، يُثْقله، ولا ينفعه.

هذه بعض الخواطر التي سنح بها الخاطر، بمناسبة بدء العام الدراسي، أرجو أن تصل إلى قلوب من قصدتهـــم بها كما خرجت من قلبٍ يحبهم، داعيًا الله تعالى أن ينفع بهم الأمة جميعًا.